أسس وآثار المدارس الصوفية بالمغرب
مدرسة أبو العباس السبتي أنموذجا

حسناء عدي
جامعة محمد الخامس الرباط كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تكوين الدكتوراة: الإنسان والمجال في العالم المتوسطي
التخصص العقائد والاديان السماوية

مقدمة

الحمد لله ذي الجلال والجمال، الموصوف بنعوت الكمال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاد بالأخلاق، وجميل الخصال، وأعطى من أخطا، وعفا عمن هفا، وغرس الجود والإحسان بالقول والفعال. وبعد:

لا شك أن تحت حضارة الإسلام مدارس متنوعة تسعى لرفع الجهل والأمية عن الإنسان ،وترنو ليكون هذا الحي بكرامته، يعيش تحت أنوار العلم ،ونسمات المعرفة، فاحتضنت تحت ظلالها مدارس الفقه وأصوله، والتفسير، والحديث ، والعقائد، والفلسفة وغيرها، شرعية كانت أو طبيعية ، نظرية أو تطبيقية، عقلية أو نقلية . وكلها لتنمية العقل، والكشف عن حقائقه ،وتطوير القدرات والفحص عن أسرارها، إلا أن المدارس الصوفية وخطابها الظاهر والباطن هي التي تستطيع أن تخاطب الروح بامتياز، وتزيل عنه تلك الغشاوة التي تعلوه يمينا وشمالا، وتجعل ذاك الإنسان المجهول يدرك حقيقته وأسراره، وبتعبير آخر هذه المدارس وحدها هي التي تملك زمام الروح لتربطه بالملإ الأعلى بعد أن عاش في مستنقع الشهوة ،ووحل الشبهة، تربطه بعالم الملكوت ،بعالم الإيمان ، وبفضلها ونهجها تتحقق للسالك السائر إلى الله تلك الرحلة الروحانية ، والسفر الذوقي الوجداني. نعم بها يصل المريد إلى محطة الوصال، ويحط رحاله في رحاب المقامات والأحوال.

وليست المدرسة السبتية بمنأى عن أخواتها في إصلاح الروح، وروح الإصلاح، بل تعتبر من رواد هذا التوجه الرباني، لذلك ارتأيت في هذا البحث أميط اللثام عن معالمها ، عن أسسها، عن مزاياها، عن آثارها، وكيف أسهمت في إعداد عدة السائرين إلى الله وتثبيت أقدامهم في منعطفات الطريق ومنعرجات السبيل، فمن هو القطب أبو العباس السبتي؟ وما هي الأسس التي بني عليه مذهبه في التصوف؟ وماهو الأثر الصوفي الذي تركه ؟ وما هي حقيقة أن مذهبه في التصوف قائم على الصدقة والجود؟

المبحث الأول: ترجمة أبو العباس السبتي

المطلب الأول: اسمه ونسبه ، مولده ونشأته

أ. اسمه ونسبه:

أجمعت المصادر التاريخية أن اسمه أحمد بن جعفر الخزرجي أبو العباس السبتي مولدا ومنشأ، المراكشي وفاة[1]، يرجع نسبه إلى مكان ولادته مدينة سبتة المغربية السليبة بشمال المملكة، ويطلق عليه أيضا اسم (سيدي بلعباس) "[2].

1- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، عباس بن براهيم السملالي، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط3، 1993.ج 1 ص 234

2- الإعلام السملالي، ج 1 ص 234

ب. مولده ونشأته :

وكان مولده عام (524 هـ) أربعة وعشرين وخمسمائة[1]. "ينتسب إلى أسرة فقيرة، إذ بوفاة والده اضطرت أمه إلى دفعه لحائك من أجل تعلم الحرفة مقابل أجر، وكانت له رغبة في العلم، فكان كما تقول الروايات، يفر من معمل الحائك ليلتحق بكتاب الشيخ أبي عبد الله محمد الفخار (دفين تطوان) فتلتقي به أمه لتعيده إلى الحائك بعد معاقبته. ومع تكرار الحادث تدخل الشيخ مقترحا على الأم أن يعلم الصبي ويدفع لها أجره"[2]. وبفضل رعاية شيخه الخاصة له، حفظ القرآن ومختصر ابن ابي زيد وفنونا من العربية والادب، وفيما بعد أبدى رغبته لشيخه في السفر طلبا للعلم ولقاء المشايخ، فتوجه قاصدا مراكش كما قال لشيخه " مدينة العلم والخير والصلاح" كغيرها من حواضر المغرب العلمية آنذاك كفاس وسبتة، وكان خروجه من سبتة سنة 540ه وعمره 16 سنة.

المطلب الثاني: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته

أ. شيوخه :

لم تذكر المصادر التاريخية عن شيوخه الكثير، إلا أنها افردت شيخه أبا عبد الله الفخار أحد تلاميذ القاضي عياض المتصوفين، المتوفي سنة 586ه، وهو دفين تطوان[3].

وكان الشيخ أبو العباس يلهج في حياته بهذه الأبيات لشيخه وإذا سمعها يخر ساجدا:

عقـــدت عليـــك مكمنـــات خـــواطري ... عقـــد الرجـــاء فألزمتـــك حقوقـــا

إن الزمـــان عـــدا علـــيّ فزادنـــي ... علمـــا بأنـــك خـــالقي تحقيقـــا

مـــا نـــالني كـــربٌ بوجـــه مَســـاءة ... إلا عبـــرتُ بـــه إليـــك طريقـــا

أَمـــض القضـــاء علـــى الرضـــى منـــي بـــه ... إنـــي وجـــدتك بالعبيـــد رفيقـــا[4]

ب. تلاميذه:

ومن أشهر تلاميذه نذكر، عيسى بن شعيب: وقد كان زوج ابنة الشيخ أبي العباس السبتي قد أدركه عجب بنفسه، وظن أنه قد زاد على مقام شيخه، فغير عليه قلبه وسافر من مراكش، وجاء بعدها خبر وفاته[5].

وأبو يعقوب بن الحكيم: أبو يعقوب يوسف بن أحمد بن الحسن الأنصاري المعروف بابن الحكيم أصله من الأندلس ونزل من الجانب الشرقي من مراكش وبه مات في جمادى الأولى من عام خمسة وست مائة وهو من أكابر أصحاب الشيخ أبي العباس السبتي رحمه الله[6].

وأبو بكر بن مساعد اللمطي، وقد لازم أبا العباس مدة طويلة وقد لقيه ابن الزيات وأخذ عنه كثيرا من أخبار السبتي وكراماته.

ثم محي الدين بن عربي، يعتبر القطب السبتي أحد شيوخ الشيخ الأكبر ابن عربي، فقد لقيه بمراكش وانتفع

1- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت، ط.1، 1996 ج 1 ص 389.

2- تعطير الأنفاس، ابن المؤقت، نشر وتقديم وتعليق أحمد متفكر، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش ـ المغرب 2003. ص 109

5 الإعلام، السملالي، ج 1 ص 325

4- التشوف، ابن الزيات التادلي، تحقيق احمد التوفيق، منشورات كلية الآداب ـ الرباط، ط 2، 1997. ص 464

5- التشوف، ابن الزيات التادلي، ص468، بتصرف.

6- التشوف، ابن الزيات التادلي، ص: 404- 406

به، قال ابن عربي في الفتوحات:" بمراكش لقيته وفاوضته"[1].

ج. مؤلفاته :

من مؤلفاته؛ قصيدة الزايرجة في علم الحروف والأسماء (علم السيمياء)، أثبتها ابن خلدون في مقدمته[2]، مطلعها (يقول سبيتي ويحمد ربه.....مصلّ على هاد الى الناس أرسلا)، وقال الزركلي: " أبو العباس السبتي المراكشي متصوف نسبت إليه (الزايرجة) في استخراج الغيوب"[3].

وله منظومة في علم الكيمياء مطلعها (لك الحمد يا مولاي حمدا مكملا..... لما لك من منّ عليّ تفضلا)

وله أيضا نزهة الخاطر في إخراج الضمائر، وهو مخطوط في خزانة الرباط تحت رقم (2/41ك).

المطلب الثالث: صفاته وثناء العلماء عليه

وصفه السملالي في الإعلام قائلا: "كان أبو العباس رحمه الله جميل الصورة، أبيض اللون، حسن الثياب، فصيح اللسان، قديرا على الكلام، مفوها حليما صبورا، يحسن إلى من يؤذيه، ويحلم على من سفه عليه، رحيما عطوفا محسنا إلى اليتامى والأرامل...فيحض الناس على الصدقة... تناول له الصدقات فيفرقها على الناس وينصرف"[4].

وقال عنه الإمام الذهبي رغم بعض مواقفه المتصلبة سواء من الأشاعرة أو الصوفية: "أبو العباس السبتي الزاهد، شيخ المغرب في عصره، أحمد بن جعفر الخزرجي، صاحب الأحوال والمقامات والكرامات"[5].

وبعد أن أفرد ذكره صاحب التشوف قال: "وبالجملة فإن شأنه من عجائب الزمان وأنا أثبت من غرائب أخباره ما ينوب عن العيان، وكان قد أعطى بسطة في اللسان وقدرة على الكلام لا يناظره أحد إلا أفحمه، وكان سريع الجواب، وكان القرآن ومواقع الحجج على طرف لسانه عتيدة حاضرة، يأخذ بمجامع القلوب ويسحر العامة والخاصة ببيانه. يأتيه من يأتيه للإنكار عليه فما ينصرف عنه إلا وقد سلم له وانقاد لقوله"[6].

وقال عنه ابن قنفد: "الشيخ الفقيه العالم المحقق"[7].

المطلب الرابع: وفاته

توفي القطب أبو العباس أحمد السبتي بمراكش سنة إحدى وستمائة[8]، وذلك يوم الإثنين الثالث من جمادى الآخرة (26 يناير1205م) ودفن خارج باب تاغزوت[9]. والذي يسمى أيضا بباب أبي العباس السبتي.

المبحث الثاني: أسس المدرسة السبتية

المطلب الأول: الالتزام بالشريعة

فالنظرة العميقة الى نشأة المدرسة السبتية، و التي غرس بذورها العارف بالله أبو العباس السبتي- رحمه الله- نجد أنها رضعت لبان العلوم الشرعية منذ بزوغها، و التي تتمثل في كتاب الله، والمزاوجة بين الفقه الظاهر و الباطن.

1- الفتوحات المكية، محي الدين بن عربي، طبع وتصحيح أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية لبنان بيروت ج 3 ص 292

2- مقدمة ابن خلدون، مراجعة: د. سهيل زكار الناشر: دار الفكر، بيروت الطبعة: الأولى، 1401 هـ - 1981 م ج1 ص 141

3- يرد على كلام الزركلي بأنها ليست من الغيوب بما ذكره ابن خلدون في مقدمته حيث قال: "ثم نكشف عن الحق فيها وأنها ليست من الغيب، وإنما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الإفادة فقط" (انظر المقدمة، ص: 490).

4- الإعلام، عباس بن براهيم السملالي، ج 1 ص 236

5- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، بشار عواد، (13/ 263).

6- التشوف، ابن الزيات التادلي، ص 451

7- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ، ص 7

8- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، ج 1 ص 389

9- الإعلام، عباس بن إبراهيم السملالي، ج 1 ص 236

مما يجعل القارئ يتحلى بقناعة تامة أنها مدرسة أسست على كتاب الله وسنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه القناعة في حد ذاتها رد على معاول الهدم التي تخدش في سمعة التصوف، وتتهمه بالبدعية الجوفاء ،انطلاقا من بعض السلوكيات الذوقية، والأبعاد الوجدانية المتعلقة بطبيعة التصوف المبني على الجانب العملي، وهو الطريق ،والجانب النفسي أو الشعوري المتمثل في التجربة ،والجانب النظري المؤدي إلى المذهب ،وكل هذا لم يحمل على محمله الصحيح، مما أدى إلى اتهامات خاطئة في الاتجاه الصوفي.

و المدرسة السبتية مدرسة أسس بنيانها على قاعدة جليلة خلفها الشيخ زروق، والتي تقول :"إن الفقه و التصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله سبحانه[1] " فلا تصوف إلا بالفقه إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه و لا فقه إلا بالتصوف إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعمل.

ومما يجسد هذه الحقيقة أن العارف بالله الشيخ أبا العباس السبتي يقول كما روى ابن الزيات في كتابه: التشوف إلى رجال التصوف قال :"فقرأت القرآن إلى أن حفظته ثم قرأت الأحكام إلى أن بلغ مني عشرين سنة[2] "فالعارف بالله قد اشرب قلبه القرآن وترعرع في أحضانه منذ نعومة أظفاره .

وما ذكره عنه العلامة ابن الموقت في كتابه "السعادة الأبدية "يقرب الصورة أكثر ويرفع عنها الضبابية التي تؤدي إلى ساحة اليقين إذ يقول: وكان رضي الله عنه مشاركا في عدة فنون بصيرا بالمذهب وفروعه ضابطا لقواعده عارفا بصناعة الأحكام حائزا على رئاسة الفقه في وقته علامة مشاركا ولمقاصد السنة سالكا إلى أن قال: وكان من العلم والعمل به في الغاية[3].

كل هذه الإشارات تجسد لطبيعة هذه المدرسة وتكشف الغطاء عن أسسها وبأنها بدأت مسيرتها مستمسكة بكتاب الله والشريعة المحمدية مستظلة بظلالهما كما هو الشأن لكل المدارس الصوفية التي تسقى بماء واحد وتسير وفق قوانين الشريعة الإسلامية رغم ما تتعرض لها من سوء فهم تجاه المغرضين الذين لا يتقنون إلا فن التهم دون بينة من أمرهم.

المطلب الثاني : نظرية الجود

لا يخفى أن المدرسة السبتية انفردت بنظرية الجود التي تنطلق من عنوان بارز وهو :"الوجود ينفعل بالجود" لما لها من أبعاد متداخلة ومتكاملة، حيث اعتبرتها الدواء الشافي لما يعاني منه المجتمع من أمراض فتاكة، ناتجة عن البخل والشح. كما تسعى هذه المدرسة إلى ربط الخير كله في الدنيا والأخرة بالإحسان والعطاء، وحصر الشر كله في الشح والإمساك، مستمدة أصولها القوية من منبع الوحي الصحيح الكتاب والسنة. فمؤسسها العارف بالله سيدي ابو العباس جعل نصب عينيه قول الله تعالى "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون "بل يتلذذ بها ويرمز إلى الحقائق من خلالها .فانطلاقا من قناعته التامة بأن أشرف الخصال في الاسلام هي فضيلة الإنفاق و السخاء، وضع لنفسه برنامجا تصاعديا لتنفيذ ذلك .و يتلخص برنامجه في ما يأتي:

1- تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول في أمور أعمها التصوف وما فيه من وجوه التعرف المسمى اختصارا" قواعد التصوف وشواهد التعرف" لأبي العباس أحمد بن أحمد عيسى زروق الفاسي ، اعتنى به نزار حمادي، المركز العربي، الشارقة، الباب الثاني، ص 44).

2- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ،لابن الزيات ،تحقيق أحمد توفيق، ، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاءأ الطبعة الثانية1997، ص 459

3- السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الخضرة المراكشية، لجامعها محمد بن محمد بن عبد الله المراكشي الموقت ،مطبعة مصطفى الباني وأولاده مصر. 1341ه ص115

1. نذر أولا أن يطبق تلك الآية على ظاهرها، وذلك بالتزامه بأن يقسم ما ساقه الله إليه من رزق إلى قسمين متساويين يرمز إليهما العدل و الإحسان فكان ينفق على نفسه و أهله القسم، و يجتهد في الإحسان بالنصف الثاني.
2. ثم تعاهد مع نفسه إمساك الثلث ،و التصدق بالثلثين الباقيين . فكل رزق وصل إلى بين يديه يتصرف فيه على هذا النحو.
3. ثم شدد على نفسه اكثر و ألزمها بأن يقسم ما تيسر له إلى سبعة أقسام يستأثر لنفسه بسهمين منها ويتصدق بالأسهم الخمسة المتبقية.
4. وانتهى أخيرا إلى أن لا يأخذ من كل ما رزقه الله إلا العشر. وأن يحسن إلى المحتاجين بالتسعة أعشار أخرى.[1]،

فهو بهذا الخلق يجسد عمليا خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم المتجلي في سيرته العطرة كما روى أنس بن مالك رضي لله عنه أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين ،فرجع إلى قومه وقال :"أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة وأعطى صلى الله عليه وسلم مائة من الإبل[2].

فالعارف بالله سيدي أبو العباس السبتي كان يبحث عن أن يصير إخراج المال من يده سجية وطبعا، لا يلتفت إليه بخاطره بتاتا. ومن ذلك أنه كان يذهب إلى تفسير البخل لا على أنه عدم الإنفاق، بل على أنه التردد في الإنفاق[3]، حتى أن معاصره الفيلسوف الكبير أبا الوليد بن رشد قد بعث من قرطبة عبد الرحمان بن إبراهيم الخزرجي ‘إلى مراكش وأوصاه قائلا :إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش فانظر مذهبه وأعلمني به. قال عبد الرحمان :"فجلست مع السبتي كثيرا إلى أن حصلت مذهبه. فأعلمت أبا الوليد بن رشد فقال لي: هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود[4]، ومما يجعل هذه المدرسة متميزة أن ربطت نظرية الجود بما هو أعمق في حياة الإنسان حيث ركزت على عدة نقاط مهمة :

1. علاقة الجود بالتوحيد: حيث اعتبرت أن الإنفاق دليل على تخلص المنفق من الشرك الخفي وبرهان على الإخلاص التام لله جل وعلا، ففسر الشهادتين بأنها تدل على أن مال الدنيا يملكه خالق لا شريك له يعطيه لعباده من أجل أن يتخلوا عن شطر منه، والدليل قوله تعالى : وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير.
2. علاقته بالصلاة فالمدرسة ترى أن المصلي يتصدق بوقته بغية الوقوف بين يدي الله عز وجل، وقوله الله أكبر مع رفع اليدين معناه اعتراف الإنسان أنه لا يملك شيئا، وكل ماله لله، والركوع معناه مشاطرة المال مع الفقراء.
3. علاقته بالزكاة ففرضها على الإنسان دعوة إلى التدرب على العطاء وترويض النفس على ملكة الإنفاق وسجية الإحسان
4. علاقته بالصوم فهو في حد ذاته مدرسة تدعو إلى البذل حيث يحس الصائم بالجوع فيتذكر الجائعين فيحمله ذلك على العطف والشفقة عليهم بمشاركته معهم ما يملك.

1- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، لعبد السلام غرميني، دار الرشاد الحديثة ص 356

2-الإعلام السملالي ، ص 25’

3- الشفا في سيرة المصطفى للقاضي عياض، المحقق: عبده علي كوشك، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 2016م ص112.

4- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية ص 357.

5. علاقته بالحج، فإن الحاج يبرز في زي المساكين بحلق الرأس، والشعث، ولبس النعلين، والتجرد من ثياب الرفاهية، والبذل لله تعالى، وإظهار العبودية[1].

فبهذه التجربة الذوقية والتأويلات السبتية استطاعت المدرسة أن تؤصل لهذا الخلق وتجعله رمزا للتكافل والتضامن الاجتماعيين ودعوة إليه في جميع مناحي حياة المسلم[2].

المطلب الثالث: الجهاد والمجاهدة

من الأسس المتينة التي أنشأت عليها المدرسة السبتية أس الجهاد والمجاهدة، والذي يتمركز على إصلاح النفس، وجهاد الهوى، ومكابدة نزغات الشيطان، وما تلقيه الدنيا من فتن في خاطر الإنسان.

قال الإمام القشيري :أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات[3].

ونتائجها تتجلى في كلام عميق للأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله حيث يقول: من زين ظاهره بالمجاهدة خسن الله سرائره بالمشاهدة، واعلم أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمعة تنير له الطريق[4].

كما أن أبا عثمان المغربي[5] رحمه الله يقول: من ظن أنه يفتح له شيء من هذه الطريقة، أو يكشف له عن شيء منها إلا بلزوم المجاهدة فهو مخطئ[6] .

ولم لا؟ فهي طريق الهداية. إذ يقول الله :"والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " ويقول الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء: "فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها ".

ويعتبر هذا الجهاد جهادا أكبر حيث له علاقة بالنفس التي يحملها الإنسان بين جنبيه والتي تمكر به بين الفينة والأخرى وله علاقة كذلك بالأعداء الأخفياء وهذا ما يود الإشارة إليه إبراهيم بن علقمة لما قال لقوم جاءوا من الغزو: قد جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر فقالو له : وما الجهاد الأكبر قال: القلب[7].

يـــــامن يجاهـــــد غازيـــــا أعـــــداء ديـــــن الله يرجـــــوا أن ينصـــــرا
هـــــلا غشـــــيت الـــــنفس غـــــزوا إنهـــــا أعـــــدى عـــــدوك كـــــي تنصـــــرا
إن أنـــــت نلـــــت جهادهـــــا وعنادهـــــا فلقـــــد تعاطيـــــت الأكبـــــر

وهذا ما يود سيدي أبو العباس خلاصته حينما قال :" وسر الجهاد بذل النفس في مرضاة الله تعالى والتخلي له عن كل شيء ،وترك التعلق بأسباب الدنيا" ومجاهدته رحمه الله يمكن أن تبنى على نقاط ثلاث من حياته:

1- التشوف للزيات ص 453.

2- كتاب التشوف في رجال التصوف ،لابن الزيات، ص 99.

3- المصدر نفسه، ص98.

4- المصدر نفسه، ص98.

5- سعيد بن سلام، أبو عثمان المغربي (ت373هـ): كان أوحد في طريقته وزهده. لم يُر مثله في علو الحال، وصون الوقت، وصحة الحكم بالفراسة، وقوة الهيبة. ترجمته في: طبقات الصوفية، ص ص: 479- 483.

6- الرسالة القشيرية، لأبي القاسم عبد الكريم القشيري، تحقيق واعداد معروق مصطفى زريق. الناشر: المكتبة العصرية بيروت لبنان،2001م، ص: 98.

7- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ،العباس بن ابراهيم السملالي ،مراجعة عبد الوهاب بن منصور الطبعة الثانية 1993م، المكتبة الملكية الرباط، ص 236..

1. الجهاد بطلب العلم ونشره: حيث رحمه الله كان مشاركا كبيرا في علوم الإسلام ،فقيها على مذهب مالك بل وحائزا على قصب السبق فيه . كما كان في أوائل أمره يسكن الفندق ويعلم الطلبة النحو والحساب[1].
2. جهاده بالعمل: فخلوته في جبل جيليز بمراكش متعبدا ومتحنثا ومعتكفا والتي امتدت لسنوات طويلة كافية للمجاهدة العملية والتربية التطبيقية التي تزكو بها النفس وتترقى بها في مدارج السائرين إلى الله كما أن إنفاقه المستمر عل العامة والخاصة وخدمته للناس هو في حد ذاته مجاهدة قال ابن الزيات في كتابه التشوف :كان الغرباء الواردون على مراكش من طلبة العلم يأوون إليه فينفق عليهم جميع ما يكون... وكان يأتينا بالطعام على رأسه ويوفر علينا أجرة الحمال[2].
3. جهاده بالدعوة إلى الله شهادة ابن الزيات كافية لجعل أبي العباس السبتي داعية إلى الله وقاضيا حياته في إظهار الحق ورفع مشعل الدعوة الصادقة والدفاع عن حياضها بكل أساليبها الناجحة، يقول ابن الزيات في كتابه التشوف : وكان رحمه الله قد اعطي بسطة في اللسان وقدرة على الكلام إلى أن قال: وكان القرآن ومواقع الحجج على طرف لسانه عتيدة حاضرة يأخذ بمجامع القلوب ويسحر العامة والخاصة ببيانه[3].

المطلب الرابع: التوكل

يقول الله تعالى :"﴿ وَمَنْ يَّتَوَكَّل عَلَي ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾[4]". ويقول:﴿وَعَلَي ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾[5] والمعنى العميق للتوكل، كما قال سهل بن عبد الله:" أن يكون العبد بين يدي الله عزوجل كالميت بين يدي الغاسل ،يقلبه كيف شاء، لا يكون له حركة ولا تدبير[6].

والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب ،بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى، وإن تعسر شيء فبتقديره، وإن اتفق فبتيسيره، ولما كانت هذه الصفة بلسما للإنسان المؤمن، وملجئا له من حياة الاضطراب النفسي، حيث يستسلم لجريان القضاء والأحكام الإلهيين، ويكتفي بالله تعالى، ويسند أمره كله له، من غير جزع ولا سخط، نجد أن المدرسة السبتية المتمثلة في قطبها العارف بالله سيدي أبي العباس السبتي قد رسمت خطة ناجحة للإنسان الباحث عن الطمأنينة ، والمتمثلة في قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول:" لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا[7]".

وحينما نمعن النظر في بداية حياة أبي العباس السبتي نجدها تنطلق من مبدإ التوكل من زاوية، ومبدا التسبب من زاوية أخرى، حيث اعتبرهما جناحين لا يصل الإنسان سماء الإيمان إلا بهما، ولأتثبت قدماه في سيره إلى الله إلا بهما ، وقد ذكر ابن الزيات شهادة عنه إذ يقول :"كان ابتداء أمري أني كنت صغيرا فسمعت أقوال الناس في التوكل فتفكرت في حقيقته إلى أن رأيت أن التوكل لا يصح إلا بترك تسليم كل شيء ولم يكن عندي منه ذوق، فتركت الأسباب وطرحت العلائق ،ولم يبق في نفسي تعلق بمخلوق فخرجت سائحا متوكلا[8]".

1- التشوف ص451.

2- المصدر السابق.

3- التشوف، ص451

4- سورة الطلاق الآية : - 3.

5- سورة المائدة الآية :- 23

6- الرسالة القشيرية في علم التصوف لأبي القاسم عبد الكريم القشيري المكتبة العصرية، ص 163.

7- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز - محمد فؤاد عبد الباقي - محب الدين الخطيب، الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة، 2015م، ج11 ص30.

8- التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات، ص 454.

فبكلامه هذا يجسد لنا نصيحة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل له ناقة، كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: يا رسول الله هل أدعها وأتوكل؟ فقال :اعقلها وتوكل[1]. وفي هذا الحديث إشارة إلى أن السبب لكونه فعل الجارحة لا ينافي التوكل لكونه فعل القلب . ويتم ابن الزيات كلامه على هذا العارف بالله لما قال:" فقعدت مع الله على الا يأتيني شيء قليل، أو كثير إلا أمسكت من الثلث، وصرفت الثلثين لله تعالى [2]". كما نقل لنا عنه كلاما يحسم توجهه في الباب إذ يقول: "فوجدت آية من كتاب الله ترد على قلبي كثيرا وعلى لساني وهي قوله تعالى" إن الله يأمر بالعدل والإحسان" فتدبرت ذلك وقلت: لعل هذا هو السبب، وأنا المطلوب بهذه الآية[3].

إنه التوكل في أجمل صوره، وأحلى حلله، إنه دعوة إلى ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة، إنه التسليم والتفويض الصادقين لله.

المبحث الثالث: مميزات المدرسة السبتية

المطلب الأول: الجمع بين الخلوة والجلوة

تميزت المدرسة السبتية بالجمع بين الخلوة والجلوة، فإن كان كثير من أقطاب التصوف آثروا اعتزال الناس آخر حياتهم والبعد عن السلطان، فإن الشيخ أبا العباس خالطهم في آخر حياته واعتزلهم أولها، فكان لهذه المخالطة أثر بالغ على كل أطياف المجتمع بما في ذلك الخليفة الموحدي يعقوب المنصور فكانت سببا لدخوله في طريقة القوم وصار واحدا من مريدي الشيخ أبي العباس، فقد تكونت بمراكش في النصف الثاني من القرن السادس حركة صوفية ذات طابع خاص. كان رائدها القطب سيدي أبي العباس الذي هاجر من مدينة سبتة إلى مراكش، فلم يتمكن من الدخول إليها فقد كانت يومئذ موطن للاضطرابات، ومحاصرة من قبل الموحدين الذين كانوا يضيقون الخناق على ما بقي من السلطة المرابطية، فاستقر به المقام على جبل جليز، الذي اختلا فيه وانقطع للعابدةً والتبتُّل، والتدبُّر في معاني القرآن ،والتركيز على الآيات التي حَضَّت على الإنفاق والصدقة والعطاء والبَذل والإحسان، وإعمال النَّظرَ والفِكَر في أحاديث النبي ﷺ وسيرته، حتى داع صيته، وظهرت كراماته وتناقَل الناس أخبارَه، وقصدوه يلتمسون منه البركات، ويستوهبون منه الدعوات، واجتمَع حولَه الأتباع، وتَشكَّلت في مجالسه مجموعات من التلامِذة الأوفياء[4]، فبلغ خبره إلى السلطان يعقوب المنصور الموحدي فاستقدمه إلى داخل أسوار مراكش ليستقر أول الأمر في فندق قال: صاحب نفح الطيب: وكان في أوائل أمره يسكن الفندق ويعلم الطلبة النحو والحساب، وما يأخذه من أجرة ينفقه على الطلبة الغرباء وباقي أوقاته يقضيها متجولا في الأسواق يذكر الناس و يأمرهم بالصلاة"[5].. وشهدت فترة مكث أبي العباس بمراكش شيوعا لكراماته، وسرعان ما تحول المكان الذي استقر به إلى موقع تلاق للفقراء والمحتاجين فقد كان يجلس حيث أمكنه الجلوس من السوق والطرقات ويحض الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من آيات وأحاديث وآثار، فتتثال عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف[6]، ما أدى بالخليفة المنصور أن يحبس عليه مدرسة للعلم والتدريس ودارا للسكنى وأصبحت له المكانة

1- أخرجه الترمذي رقم (2519) في صفة القيامة باب رقم (61) وهو حسن بشواهد.

2- التشوف إلى رجال التصوف، ص 460.

3- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، ص 454.

4- المصدر نفسه ص454.

5- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيريها لسان الدين بن الخطيب، لأحمد المقري التلمساني، تحقيق: د. مريم قاسم طويل، و د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، 2011م، ج10 /ص129.

6- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن خالد الناصري الدرعي، تحيق: جعفر الناصري و محمد الناصري، الناشر: دار الكتب - الدار البيضاء، ج2/ ص262.

والحظوة لدى الخليفة[1]، ولما احتاج الناس للسقيا والمطر بعد جفاف وفاقة في سنة عجفاء، صدر الأمر من السلطات بإقامة صلاة الاستسقاء. وخرج الناس جميعهم يقودهم الخليفة يعقوب المنصور نفسه، ولم يبق أحد في المدينة وخرج اليهود والنصارى والبهائم والنساء والولدان للصلاة، وبقوا مدة والقحط واقع بهم والحال على هو عليه.

فسئل الخليفة أعوانه هل شارك أبو العباس السبتي في الاستسقاء؟ فأخبر بالنفي فاستدعاه الخليفة ليعرف منه سبب تخلفه، فلما حضر عنده حمل مسؤولية ما وقع بالمسلمين للخليفة نفسه! وقال إن تكرار صلوات الاستسقاء لن تأتي بنتيجة بعد أن حرم الفقراء ضروريات الحياة، ورأى أن الخلاص يكمن في قيام الدولة بتوزيع ما لديها من المدخرات على المحتاجين، وأن تسارع إلى الإشفاق عليهم ورحمتهم لتستحق عطاء أرحم الراحمين، فاستجاب الخليفة إلى نداء الشيخ أبي العباس، وأصدر أوامره بأن يمكنوه من بيت المال وأن يعطوه كل ما يحتاج من الثياب والزرع وأن لا يمنعه أحد في كل ما أراد...

فصار يوزع المال على الفقراء والمساكين والضعفاء ويقول: لا يرحم الله من عباده إلا الرحماء"، واستمرت هذه العملية الإحسانية الشاملة ثلاثة أيام حتى لم يبق مسكين إلا وقد رضي بما وصل إليه، واعتبر أبو العباس السبتي أن ذلك عنوان على رضا الله تعالى، ووعد موقنا في إجابة الله لدعواته، بأن الناس سيمطرون عن قريب. فكان ذلك ما وقع بالفعل![2].

ثم توالت أحداث ذات مغزى كبير ودلالات عميقة بين أبي العباس ويعقوب المنصور، انتهت بدخول الخليفة في رابطة الإرادة مع هذا الصالح المعاصر له وصار أحد مريديه، فانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل العلم صيت، وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب اليهم ويسألهم الدعاء، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة [3]".

وقد اتخذ الخليفة اجراءات تدل على تأثره بالشيخ أبي العباس مثل محاربته لمظاهر الترف كقطع لباس الغالي من الحرير، وإراقة الخمر وكسر الات اللهو والطرب ومطاردة المغنين[4]، وتذكر المصادر أن يعقوب المنصور بعد انضمامه إلى سلك أهل الإرادة فتح له في علوم القوم وثبت قدمه في الولاية، وفسروا انصرافه عن مزاولة مهام الملك لصالح ابنه أنه نتيجة لإيغاله في طريق التربية على يد أبي العباس السبتي[5]، وتحولت المدينة إلى اجتماع إنساني مستند على إغاثة الفقراء، ومحاربة الفاقة والحرمان وفق مشروع اجتماعي واضح المعالم أسسه سيدي أبي العباس السبتي.

المطلب الثاني: الجمع بين الحقيقة والشريعة

تنتمي المدرسة السبتية إلى الطريقة القادرية، ويرتفع سندها إلى الأقطاب الثلاثة، الغزالي، والجيلاني، وأبي يعزى يلنور بواسطة سندين:

1. عن أبي عبد الله الفخار شيخه بسبتة
2. عن أبي عبد الله الفخار

1- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري الدكتور عبد السلام غرميني، الناشر: دار الرشاد الحديثة، 2011م ص368.

2- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري الدكتور عبد السلام غرميني، ،ص369.

3- والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى عبد الواحد المراكشي، قسم الموحدين، تحقيق: مجموعة أساتذة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى:1406ه، ص170. والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي تحقيق: إحسان عباس، ج5/ص 354

4- المصدر السابق، ص173و174.

5- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية ، الدكتور عبد السلام غرميني، مصدر سابق، ص370.

عن القاضي عياض عن القاضي عياض

عن أبي بكر بن العربي عن أبي علي الصدفي

عن الغزالي وأبي يعزى عن عبد القادر الجيلاني[1]

وقدت تميزت الطريقة القادرية بجمعها بين الحقيقة والشريعة على طريقة الفقهاء، ويقوم الورد القادري على تكرار عبارات الاستغفار، والهيللة، والتسبيح، والتصلية عددا من المرات في الصبح والمغرب، إضافة إلى أحزاب أخرى، مع اهتماما خاص بالجانب العلمي والفقهي[2]. وعلى هذا سارت مدرسة أبي العباس السبتي؛ فكان مشاركاً في كثير من العلوم، فقيها على مذهب مالك، حائزاً لرئاسة المذهب في وقته، بصيراً بدقائقه، ضابطاً لقواعده، عارفاً بصناعة الأحكام... حتى وصفه ابن المؤقت المراكشي في كتابه "السعادة الأبدية في التعريف برجال الحضرة المراكشية"، "بحجة المغاربة على أهل الأقاليم"[3]. وكان الوصف الذي ينعت به فعلا هو «الفقيه»، وبه كان يلقب عند العامة.

ومن تجليات حرفيته الفقهية أنه كان يميل نحو النسك المنغلق الذي ينفر من استعمال الرموز في التعبير عن المواجيد والأذواق الصوفية، وهكذا كان لا يقبل التمثل بشعر الغزل في الكناية عن لواعج المحبة الإلهية، وإذا سمع بيت شعرياً يتضمن ذلك يسارع إلى تغيير المصطلحات الغزلية فيه بألفاظ شرعية، قال أحد جلسائه يصفه - ويدعى أبو بكر بن مساعد اللمطي: ما حضرت معه قط فأنشد أحد شعرا في الغزل إلا قال له دعني من هذا وأخذ في مدح الله تعالى[4].

ومن القصائد التي عمل على تعويض كلمات منها لتخلو من أسلوب التشبيب ما روي من أن منشداً أنشد بين يديه صدر البيت:

رفعوا الهوادج للرحيل وسلموا .

فقال:

رفعـــوا الأنامـــل للصـــلاة وكبـــروا ... فبـــدا الخشـــوع لخـــوفهم بتـــرنم

وبـــدت ســـواكب دمعهـــم مســـبولةً ... خوفـــا لمـــا قـــد أخـــروا أو قـــدموا

هـــذي صـــلاة المتقـــين وغيـــرهم ... نـــائي الفـــؤاد وألســـن تـــتكلم[5]

وروي أنه سمع منشدا يقول:

يا أخي ترى النسيم لي دليلا

فعارضه أبو العباس قائلا:

1- الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة سبعة رجال، د. حسن جلاب ، منشورات الحركة الصوفية بمراكش في الأدب، رسالة دكتوراه المطبعة الورقية الوطنية مراكش، الطبعة الأولى: 1994، ص102

2- المصدر السابق ص 105

3-السعادة الأبدية في التعريف برجال الحضرة المراكشية، لمحمد بن عبد الله الموقت المراكشي، راجعه: أحمد متفكر، الطبعة الثالثة، 1432ه، ص132

4- النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، الجزء الأول دراسة وتحقيق، مذكرة لنيل شهادة الماجستير اعداد بلحاج محمد، جامعة وهرن الجزائر، كلية العلوم والحضارة الإسلامية، سنة 2007، ص 194.

5- المعزى في مناقب سيدي أبي يعزى، شيخ سيدي أبي مدين الغوث، لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص213

يـــا أخـــي قـــد تـــرى الكتـــاب دلـــيلا واجعـــل الـــذكر ثـــم الســـجود ســـبيلا
واطلـــــبن للإلـــــه جنـــــة خلـــــد بخضـــــوع يـــــراك فيـــــه ذلـــــيلا
إن أردت العبـــــاد يـــــدعوك لـــــيلا إن فضـــــلي لـــــن يكـــــون ســـــؤلا
أســـــعف العبـــــد بالإجابـــــة منـــــي لـــــيس فضـــــلي عليـــــك عبـــــدي قلـــــيلا[1]

وقال ابن مساعد حضرت معه يوما فأنشد بعض الحاضرين بيتين من قصيدة ابن عمار:

أدر المدامـــــــة قـــــــد انبـــــــرى والـــنجم قـــد صَـــرف العنـــان عـــن السُّـــرى

فقطع إنشاده وكره سماع القصيدة وقال لابد أن أكفر عن هذين البيتين الذين سمعتهما بهذين البيتين:

أقـــم الصـــلاة مهـــاجرا ســـنة الكـــرى واجعـــل صـــاحبك عنـــده حمـــد السُّـــرى
واطـــو المراحـــل بـــالعروج لمـــن لـــه لطـــف ينزلـــه إذا هجـــع الـــورى[2]

وتدل قدرة أبي العباس على تطويع اللغة وسبكها في قالب شعري على أنه كان ذا حظ لا يستهان به في الآداب، الشيء الذي لا يستبعد من رجل مثله تلقى تكوينه في حلقات سبتة ومراكش في القرن السادس.

وقد روى له ابنه عبد الله مقطوعتان من إنشاده يقول:

إنـــي أمنـــت طـــوارق الحـــدثان لمـــا تعلـــق بالإلـــه جنـــاني
وحصَّـــلت فـــي فـــردوس نعمتـــه التـــي كانـــت ترشـــد حـــالي وجنـــاني
فلـــذلك أورثنـــي مغيـــب ســـره فـــالعلم علمـــي والبيـــان بيـــاني[3]

ثم هذه الدالية:

ألا يـــا منيبـــا بـــات يـــدعو إلهـــه لقـــد هـــاج لـــي شـــوق إلـــى ذلـــك الـــوارد
يبيـــت علـــى قطـــع المراحـــل بـــالتقى ســـبوقا إلـــى الخيـــرات فـــي جنـــة الخلـــد
ومثلـــي علـــى فـــرش البطالـــة غافـــلُ فيـــا أســـفي مـــن قـــرب غيـــري ومـــن بعـــدي
أأنـــأى عـــن الفـــردوس فـــي جنـــة العلـــي ويحظـــى بهـــا ذو الـــدمع ســـكبا علـــى الخـــد[4]

وإذا كانت هذه المأثورات الشعرية المنسوبة إلى أبي العباس السبتى تخلو فعلا من استعمال الرموز المتداولة عند أكثر الصوفية من الخمرة والتغزل... ومع ذلك لم يسلم من ألسنة الناس؛ بل حتى من الخاصة فقد رمي باستعمال للكلام الفاحش في حديثه، فكيف يعقل هذا من رجل يتورع في الإنشاد الديني وينتقي ألفاظه، ثم يتساهل مع نفسه في خطابه المستعمل في الحياة العادية!؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

المطلب الثالث: العطاء والتضامن شرطان في التربية

من المعلوم أن غالبية مدارس التصوف بالمغرب والمشرق؛ تركَّزت جهود أقطابها على التربية والتزكية والمشاركة في تحرير الثُّغور والدفاع عن الأوطان عن طريق الجهاد والمجاهدة؛ إلا أنّ المدرسة السبتية قد تميزت بالترَكّيز على قيمتَي العطاء والتضامن كشَرطَيْن عَمليين عميقين للتوحيد والتربية وتحقيق التعايش بين أفراد

1- المعزى في أخبار أبي يعزى، لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي ،ص214.
2- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، ص475.
3- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري الدكتور عبد السلام غرميني ، 2011م ص363و364.
4- المصدر السابق.

المجتمع، لأن الصدقة هي السبيل الأمثل لتطهيره من داء البخل والحسد والتفرقة والتشاحن والتباغض.

وعلى ضوء هذا؛ فلم يكن القطب أبو العباس رضي الله عنه ينظُر إلى المجتمع بنظرة طَبقية تَجعله طَبَقتان: أغنياء، وفقراء، بل إلى شريحتين: مُنْفِقين وبُخلاء، فالبخيل قد يكون فقيراً أو قد يكون غنيا، لذا لم ينهَج الشيخ أبو العباس منهج أخذ الأموال من الأغنياء ورَدّها على الفُقراء، فقد كان يرى هذا واجباً مفروغاً منه، بل جَعل مَنهجه قائماً على الجُود الجماعي، فكُلُّ فَردٍ في المجتمع بإمكانه أنْ يَتَصدّق، ويُنفِق مما آتاه الله، ماديا أو عَينيا. وانطلق من نفسه فكان دَيْدنُه رضي الله عنه؛ البحث عن الفقراء والمحتاجين ومَن يعيشون في ضائقة، فيأخذ بأيديهم، وله عجائب وغرائب في إغاثة الملهوف، وبركاتٍ أكْثَرَ مِن إيرادها ابن الزيات رحمه الله[1]، وكان مَدار حديثه الصَّدَقة، والإنفاق من المال، قَلَّ أو كَثُرَ، حتّى لُقِّبَ بين العامّة "بتاجر الله بين خَلقِه"، وكان يَطوف على ذوي المال والجاه في المدينة، محفِّزاً إياهم على التصدّق والإعالة، ولم يقتصِر على تشجيع الأثرياء على العطاء بل جَعَله منهجا عاما ينخرط فيه كل شرائح المجتمع كل بحسبه، فكانت دعوة راشدة لم تُثِر ضِدَّه حَنَق الأثرياء والأمراء، بل آلَفت بين القلوب، وشجّعت على الإحسان العمومي، ودعّمت التضامن، ودَعت للمُشاطَرة ولو بِشِقّ تَمرة، فاتّفَقت على مَحبته الخاصة والعامة، وظَلَّ بجميل صَبْره وحُسْن خُلُقه ولِينِ دَعْوته ودائِبِ سَعْيه لصالح البسطاء؛ يَترقَّى في سُلَّمَ المحْبوبية حتى أحَبّه أهل المغرب حَيا وميّتاً. وأكْسَبته أعماله الجليلة وقدرته على الإقناع واستِيعاب طَبيعة المجتمع وحاجياته؛ سُمعةً طيبة، فصارَ يقصِده التّجار والحرفيون والعلماء والفقراء والأمراء، لينهلوا من بركاته، ويتوسل إلى الله بدعائه، ويترسموا بخطواته، ويسألونه عن أيسر السبل الموصلة إلى محبة الله ومرضاته؛ قال أبو بكر بن مساعد: جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب فقال له: إلى متي تحيّرنا ولا تصرّح لنا عن الطريق؟ فقال له: هو الإحسان، فقال له: بيّن لي، فقال له: كل ما أردت أن يفعله اللّه معك فافعل مع عبيده[2].

قال فيه الفقيه أحمد الصومعي إنّ أتباع الشيخ السبتي وتلامذته وأبناءه لم يرِثوا عنه شيئا، "لِصعوبة طَريقه، إذْ هي مَبنية على البَذل والإيثار الكلّي"، فمنهج الشيخ يقرن الإيمان بالعمل، ويُلزِم النفس نصيباً من التمرُّن على الكفاف وعَيش النُّدْرة، والإحساس بآلام الآخرين. وكان هو في حياته نموذجاً وقُدوة، لا يدّخِر ولا يكتنِز، ولا يتوانى عن خِدمة الناس ومُشاطَرتهم ما يَملِك، ناهِجاً في الصدقة مَسْلَكاً لم يُسبَق إليه، حتى وثِق فيه مَن يملكون إرْثاً، أو متاعاً، ومَن يرغبون في إيداع أموالِهم لصرفها في طُرُقها النافعة، حيثُ كان بعض السّادة الفقهاء إذا توفِيَّ أحدُهم أوصى بَنيه بتسليم جزء من ثروته المالية للشيخ أبي العباس السبتي[3]، ومما تجدر الإشارة إليه أن أبا العباس السبتي كان لا يؤثر بإحسانه أبناء ملته من المسلمين، بل كان يرى وجوب تعميم الرحمة على سائر الخلائق بما في ذلك اليهود والنصارى، بل أكبر من ذلك؛ فقد كان يوصي أصحاب الجزارة أن يلقوا بالعظام وفيها شيء من اللحم في مكان مخصوص تقصده الكلاب[4]، فكان كما قال فيه العلّامة إبراهيم التعارجي المراكشي في منظومته إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال:

وأحمـــدُ المجـــدُ يعلـــو قـــدْرُه أبَـــداً ... إفضـــاله عَـــمَّ لا يَخْشـــى مـــن إقتـــارِ

أمّـــا كَراماتـــه فالعَـــدُّ ممتنـــعٌ ... جَلـــت عـــن الحَصْـــر لا تُحْصـــى لإكْثـــارِ

1- التشوف إلى مذهب أهل التصوف لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي مصدر سابق- ص: 451.

2- المصدر السابق، ص461.

3- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيريها لسان الدين بن الخطيب، لأحمد المقري التلمساني، ص123.

4- المصدر السابق، ص130.

المطلب الثالث: تصدق يتفق لك كل ما تريد

كانت هذه سمة بارزة تميزت بها المدرسة السبتية، فقد بلغت الصدقة عند أبي العباس منزلة جعلته يعتبرها أصل كل خير في الدنيا والآخرة منها ينطلق وإليها يعود، فكان يقول: "أصْل الخير في الدنيا والآخِرة؛ الإحسان"، وبالمقابل اعتبر البخل أصل شر، وكان لسانُ حاله دائما قَولُه: من يُعطِي دِرْهمين يُزال عنه وَجع الرأس، ودعاءه الذي لا يتوقّف عن ترديده "يا مُصْلِح الأسرار صَفِّ أسْرارَنا"، ومُلاحَظته التي يُردّدها بمرارة قولُه لقد "رَكَن العلماء إلى الدُّنيا وبَخلوا بها"[1].

قال ابن الزيات: حضرت مجلسه مرات فرأيت مذهبه يدور على الصدقة، وكان يرد سائر أمور الشرع إليها.. وكان إذا أتاه أحد بأي أمر يأمره بالصدقة، ويقول له: تصدق ويتفق لك كل ما تريده، فكان يطالَب كل مَن يملك ولو قليلاً أنْ يتصدّق على مَن لا يملِك، وكان شعاره في ذلك "سَبَق درهمٌ مائةَ ألفِ درْهمٍ[2]"، وكان يقول لمريديه: إنما أنا دَلّالُ خَير، وواسطة بين الخلق وخالِقِهم، أدُلُّهم على فَضله وإحسانه[3]، فكان يقصده المرضى طَلبا للدعاء بالشفاء، وكان لا يَفتأ يطلُب من كُلِّ ذي مَرَضٍ أنْ يَتَصَدّق، أو يَدفع "الفْتوح"، وكان يقول: إنّ في الصَّدَقة أسرارا، ليس أقَلُّها حلول بركة العافية والشفاء في المريض[4]، وكان يذهب إلى أنه بإعطاء الشطر تكون الوقاية لقوله صلى عليه وسلم «اتقوا النار ولو بشق تمرة[5]» وبإعطاء الثلثين يحكم في المخلوقات كالاستسقاء والولاية والعزل ودخول الجنة وأمثال ذلك، وبإعطاء خمسة أسباع يستجاب الدعاء وتكون الكائنات[6] !.

قال فيه الصومعي: كانت له هِمّة عالية، وكان بقُدْرة العزيز الجبّار تَنْفَعِل له الأشياء على مُقتضى مُرادِه، فكان يتعجّب منه العدو، ويَزيدُ في مَحَبّتِه الصّديق". وأكثَر القولَ في مذهبه وجُوده وأسرارِه خَلقٌ كثير[7].

قال ابن مساعد : أصاب الناس قحط بمراكش فدخلت مع أبي العباس دار الإشراف وكان النظر فيها لأبي يحيى أبي بكر بن يوسف الكومي، وكانت بينهما صحبة ، فسلم عليه أبو العباس وأشار له إلى السماء كأنه قال له : تصدق ليسقى الناس ، فقال له أبو يحيى : إن الله غني عنا ، فولى أبو العباس وهو يقول : سبحان الله ، هذا الرجل عزل نفسه، ثم قال لي : أرخ هذا اليوم، قال : فأرخه ثم قلت له : من أين قلت هذا القول ؟ فقال لي : قال الله عز وجل:﴿**هَآنتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّنْ يَّبْخَلُ وَمَنْ يَّبْخَلْ فَانَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَان تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ**﴾[8] . قال ابن مساعد : فتمت ثلاثة عشر يوما من يوم التأريخ وجاء من اشبيلية أبو محمد بن عبد الصمد بعزل أبي بكر بن يوسف عن دار الإشراف[9].

وقال عنه الشيخ الأكبر ابن عربي، - وقد التَقى به في جولته الشهيرة إلى المغرب فاجتَمع به ولازمه أياماً - . كان من الأولياء الذين قدّم الله لهم إجابة دعائهم في الدنيا بواسطة الصدقة، فكان يُمرض ويُشفي ويُحيي ويُميت ويُولّي ويَعزل ويفعل ما يريد بإذن الله، وكل ذلك بفضل الصدقة! وكان يسمّيه بصاحب الصدقة أو صاحب

1- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، ص475.

2- المصدر السابق، ص467.

3- المعزى في أخبار أبي يعزى، لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي ،ص223.

4- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، ص475 و476.

5- رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق ثمرة وقليل من الصدقة، ص263.

6- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، ص473..

7- المعزى في أخبار أبي يعزى، لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي ،ص209.

8- سورة محمد الآية: 39

9- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ابن الزيات) ص469.

الصدقات[1].

وقال أيضا الشيخ الأكبر: أنه كان على علم بسرّ النكاح وأنه يُذهب الفقر، كما ورد في بعض الأحاديث النبوية، فقد روى أنه جاءه إنسان يشكو الفقر فقال له تزوج! فتزوج، فشكى إليه الفقر ثانية، فقال له تزوج أخرى! فتزوج اثنين فشكى إليه الفقر مرة أخرى، فقال له ثلّث فثلّث فشكى إليه الفقر، فقال له ربّع فربّع فقال الشيخ السبتي قد كمل! فاستغنى هذا الرجل ووسّع الله في رزقه ولم يكن في نسائه اللائي أخذهُن مَن عندَها شيء من الدنيا، فأغناه الله بالنكاح[2]. وقال عنه لسان الدين بن الخطيب: كان سيدي أبو العبّاس السبتي رضي الله عنه مقصوداً في حياته، مُستَغاثاً به في الأزمات، وحالُه مِن أعْظَم الآيات الخارِقة للعادات، ومَبْنى أمْرِه على انْفِعالِ العالَم عن الجود وكَونُه حِكمة في تأثير الوجود[3].

المطلب الرابع: شبهه بالشيوخ

إن المتأمل في المذهب الذي أقام عليه سيدي أبي العباس السبتي مدرسته يجد شبها كبيرا بينه وبين شيوخ التصوف، وهذا ما يؤكد أنهم كانوا ينهلون من مشكاة واحدة ويستضيئون بنور الكتاب والسنة، وأنهم قد تلقفتهم العناية الربانية فتشابهت أحوالهم، واتفقت أقدارهم، فنجد بداية أبي العباس السبتي في طريق القوم شبيهة شكلا ومضمونا ببداية أبي العباس بن العريف، فقد ذكر أن ابن العريف أراد والده منه أن يكون صاحب حرفة الخياطة وأبى هو إلا أن يكون طالب علم متفنن في القراءات والحديث والخطوط، وكذلك أبو العباس السبتي أيضا كان في بداية أمره يتيما تحمله أمه إلى البزازين فيفر منهم إلى مجلس القراءة فتضربه أمه وتود أن تعود به إلى الشغل فيتدخل المعلم يستفسر عن السبب ويقول: يا بني لم لا تفعل ما تأمرك به أمك؟ فيجيب: إنما أحب هذا الكلام الذي أسمعه منك. فيقول المعلم: أتركيه وأنا أدفع لك قدر أجرته، وأدفع عنك للمعلم الذي يقرئه"[4].

وأيضا هناك شبه كبير بين أبي العباس السبتي وأبي يعزي من جهة، وبينه وبين أبي مدين من جهة أخرى. فأبو العباس السبتي أقام نظريته في العبادة وطريقته في التقرب من الله على عنصر الإحسان والإكرام والإيثار، فمنه ينطلق وإليه يعود، وفي موضوعه يصول ويجول، وإليه ينتهي في جل مواعظه وتوجيهاته، تماما كأبي يعزي فقد ذكروا عنه أنه أخذ نفسه أيضا بكثرة الصدقة والإنفاق، وكان يقول إني أستحيي أن أمسك تسعة أعشار وأصرف العشر للمساكين فإن هذا من سوء الأدب مع الله[5]". فكان يخرج تسعة أعشار من محاصيل الزراعية وينفق على نفسه عشرة واحدة، وهي القسمة التي انتهى إليه أبو العباس فيلتقيان في هذا الأمر القائم على البذل والسخاء، لكن أبا العباس تميز بنذر حياته لتطبيق هذا المذهب وتعميمه على كافة أطياف المجتمع بخلاف غيره، وهذا كما يبدو إيغال في التخلق بفضيلة الإكرام حتى ينزل الإنسان صاحب المال نفسه منزلة المسكين الذين تصرف له الزكاة فيأخذ العشر فقط، وينزل المحتاج والمسكين منزلة رب المال ينتفع بتسعة أعشار!. وكان من جهة أخرى شبيها إلى حد كبير في انقطاعه وتدينه بالبداية التي سلكها أبو مدين الغوث، فكلاهما كانا يقتصران على آية أو حديث لا يتعديا إلى غيره حتى يتقنا العمل به أولا، مختليان بنفسيهما من أجل ذلك، وكان عند الرجلين شبه قوي في هيامهما

1- الفتوحات المكية لمحي الدين ابن عربي، المحقق: د. عثمان يحيى الناشر دار المعرفة، بيروت – لبنان ، الطبعة: الثالثة سنة: م2010 ص: 386

2- المدارس الصوفية المغربية والاندلسية في القرن السادس الهجري، ص259.

3- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيريها لسان الدين بن الخطيب، لأحمد المقري التلمساني، ج10 ص122.

4- المصدر السابق، ص459..

5- المعزى في أخبار أبي يعزى، لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي ،ص17.

بفكرة التوكل على الله، ويذهبان بعيدا في قطع العلائق وإبطال الأسباب تحقيقا لمبدإ التوكل.[1]

وكما كانت لأبي مدين آية هي سدرة منتهاه، يعمل عليها ويتلذذ في الرجوع إليها، ويرمز إلى الحقائق من خلالها، ويؤول مظاهر العالم بمقتضاها ، كانت لأبي العباس السبتي آيته أيضا منها يبتدئ وإليها يعود، فآية أبي مدين التي تشكل مفتاح نظامه هي سورة الملك كما صرح بذلك عن نفسه وكان يقول هي سورتي لو تعديتها احترقت، وكانت آية أبي العباس في قول الله تعالى :﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ**﴾[2].

فكان القطب أبو العباس كسائر الصوفية لا يقتنع بالعمل الظاهر الذي تباشره الجوارح إذا لم يقترن بطمأنينة قلبية تامة، فيرى أنه بقدر ما يمعن الإنسان في الاتصاف بصفة الإحسان بقدر ما يكتسب قدرات خاصة وتتجوهر نفسه ليصبح متمكنا من علوم ومتحكمة في عوالم»[3]، كل هذه العوامل أسهمت بتميز المدرسة السبتية عن غيريها من المدارس، فكان لها الآثار البالغ على المجتمع المغربي عموما وعلى حاضرة مراكش خصوصا.

المبحث الرابع: آثار المدرسة السبتية

المطلب الأول : تحقيق التكافل الاجتماعي

كان لنظرية الجود التي انفردت بها المدرسة السبتية، الأثر البالغ على المجتمع بكل أصنافه وأطيافه، سواء في عصره، أو بعد وفاته، بل وإلى يومنا هذا، ومن ثمار نظرية سيدي بلعباس في الجود، أنه قلص الفوارق بين طبقات مجتمعه، فقد أدرج تحت نظريته جميع فئات المجتمع، فلم يكن يخص الأغنياء وحدهم بالدعوة إلى الإنفاق، بل كان يدعو الجميع إلى التصدق الذي وسع من مفهومه هو الآخر ليشمل الكلمة الطيبة، وإفشاء السلام، وتقديم العون والخدمة للناس، وكانت دعوته للإنفاق موجهة للذي يملك، والذي لا يملك أيضا، فكان يحمل هم المجتمع ويجتهد في مواساتهم وتقديم يد العون، ومن ذلك ما ذكر في كتاب "الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام " للعباس السملالي: "أنه بات ذات ليلة مطر فغلبه البرد فأمر أن يغطى باللحاف، فلم يندفع عنه البرد، فزيدت عليه اللحاف والبرد لم يندفع عنه، فقام من فراشه يمشي بالمحلة التي هو فيها ويقرع أبواب الديار، ولا يستجيب له أحد، إلى أن قرع باب دار فاستجاب له أهلها، فعلم أنهم لم يناموا من مكابدة البرد، فقال: مالكم لم تناموا؟ فقالوا له: قد ابتلت أثوابنا بالمطر، فنحن نجففها على النار، فقال: من هاهنا غلبني البرد، فقال أبو العباس لأهله: احملوا لهم هذه اللحاف، فسيقت إليهم وتغطوا بها، ودخل أبو العباس في فراشه، وجعل على نفسه الغطاء التي جرت عادته أن يغطى بها دون تلك اللحاف، فزال عنه البرد فنام"[4].

وهذا المذهب الذي تميزت به المدرسة السبتية جعلها من أكثر المدارس التصاقا بالمجتمع وقضاياه، والاندماج مع طبقاته وخدمتها اجتماعيا وتربويا ونفسيا، والمساهمة في تحسين أوضاعها، خاصة وأن رائد المدرسة أبا العباس السبتي أخذ النصيب الأكبر من الأعمال الاجتماعية، فهو حامي المدينة وعميد أوليائها، وصاحب مذهب عنوانه البارز الجود، وتتجلى مظاهر هذا التأثير في:

الفرع الأول: الإطعام والإيواء

كان أبو العباس السبتي لا يهدأ له بال، ولا يركن إلى نوم، إذا بقي أحد سكان حيه دون أكل أو غطاء،

1- المدارس الصوفية المغربية والاندلسية في القرن السادس الهجري، ص259.

2- سورة النحل الآية:90 .

3- المدارس الصوفية المغربية والاندلسية في القرن السادس الهجري، ص270.

4- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن ابراهيم السملالي، ص 248.

"فقد قدم له أهله ذات ليلة عشاءه، فلم يشته الأكل، فقال لأهله: لعلكم بقي منكم من لم يأكل فلذلك لم يطب لي الطعام؟ فحفوا به كلهم وقالوا: والله ما بقي منا أحد إلا وقد أكل، فقال لهم: اطلبوا ففتشوا، فلما ذهبوا لباب الدار، وجدوا امرأة مسكينة نائمة لم تتعش، فرفع إليها عشاءها فأكلته، وجعل لها فراشا تنام عليه"[1]، ولم يكن اهتمامه هذا مقتصرا على سكان حيه رضي الله عنه، بل تجاوزه إلى الناس كلهم، حيث كانت زاوية سيدي بلعباس تطعم المريدين والطلبة والمسافرين، وتقدم المساعدة لفئات واسعة من المجتمع خاصة المرضى والمحتاجين والمكفوفين وذوي الإعاقة، وغيرهم ممن لا يستطيعون العيش بدون مساعدة، في ظل غياب المؤسسات الاجتماعية المنوطة بهذا الدور، فكانت فضاء لإطعام المحتاجين، وإيواء الغرباء والمساكين وبالأخص في فترات الغلاء والمجاعات، وأوّلُهم طلبته، فكان ينفق عليهم من ماله الخاص، ويخدمهم، وجاء في التشوف، " فكان الغرباء الواردون على مراكش من طلبة العلم يأوون إليه فينفق عليهم جميع ما يكون ... وكان يأتينا بالطعام على رأسه ويوفر علينا أجرة الحمال "[2]. إن أمثال سيدي بلعباس جعلوا من " التصوف يشكل دعامة اجتماعية من خلال انتقاله من ظاهرة فردية إلى ظاهرة اجتماعية."[3]

الفرع الثاني: كراماته

ارتبط الدور الاجتماعي للصوفية بالكرامات، وحرص المجتمع على أن يكثر أولياؤه، إذ بكثرتهم تعطى فرص الخلاص من النوازل المحتملة من الفقر والمرض والجفاف..وأبو العباس السبتي كان يخضع كراماته كلها لمذهبه في الصدقة، إذ يجعلها المحرك الأساسي للكرامة والمنطلق لوقوعها، ونورد هنا نموذجا واحدا من كراماته حتى يتضح دورها في حماية المجتمع من الكوارث الطبيعية، وقضاء حوائج الناس عموما، وهذه الكرامة هي الاستسقاء؛ فقد حكي أن أبو العباس السبتي كانت له بركة ينزل بها المطر بإذن الله عز وجل، وكان يربط ذلك بالصدقة والبذل، قال أحمد الصنهاجي: جلست مع أبي العباس في جماعة من المردين وقد احتبس المطر، فمر الصبيان بنا وهم يستغيثون ويسألون المطر، فقيل لأبي العباس: أما ترى ما أصاب الناس من القحط فهلا استسقيت لنا؟ فقال : قوموا، فخرجنا من باب الدباغين ومعنا أبو بعقوب الحكيم وجماعة من المريدين والشمس شديدة الحرارة، فقال لنا أبو العباس : من كان عنده شيء فليتصدق به ، فقلت له : أما أنا فليس عندي شيء فإن أمرتني أن آتي بشيء فعلت، فقال : لا، إنما أمرت من حضر عنده شيء الآن أن يخرج عنه ومعنا رجل شديد الفقر يعرف بالطراز ، فقال ليس عندي غير ثمن درهم أعددته للزيت فقال له : تصدق به، ففعل، فقال أبو العباس : في هذا جاء الخبر : سبق درهم مئة ألف درهم[4]، قال : فلقينا أبو عبد الله محمد بن يوسف بن جذع الجذامي ، فنزل عن دابته وسلم على الشيخ، فقال له : إلى أين خرجتم ؟ فقلت : خرجنا نستسقي ، فضحك بنا وقال : صدقتم هذا الشيخ الأحمق ارجعوا، فقلت له: أما أنا فلا يمكنني الرجوع ، فَقَدِمَ أبو العباس وهو ينظر إلى السماء ويحرك شفتيه ثم قال لنا : قولوا سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم فإن الخلائق يرزقون بهذا ، فكنا نقول ذلك وتُرْفَعُ به أصواتنا وأقمنا على ذلك ساعة ، ثم قال لنا : بادِروا ، المطر، وخذوا نعالكم بأيديكم ، فضحك ابن الجذع وقال : هذا والله هو الحُمق ، يقول لكم هذا القول والشمس شديدة الحرارة ! فقلت : أما أنا فلا أكذبه ، فأخذت نعلي بيدي ، فوالله ما وصلنا

1- الإعلام للسملالي ص 248/249.

2- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، ص455، بتصرف.

3- الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع هجري، جمال علام البختي مكتبة الثقافة الدينية القاهرة الطبعة الأولى 1426هـ- 2005م ص 64- 65.

4-أخرجه النسائي (2527)، من حديث أبي هريرة وهو حديث صحيح.

باب الدباغين حتى غُمتِ السماءُ وانْهَمَلت بالأمطار ، فبقي ابن الجذع مذعورا ، فقال لأبي العباس : اغفر لي سيدي فإني أتوب إلى الله تعالى مما ظننت بك ، فقال له أن تقبل توبتك هكذا حتى تتصدق بشيء، فأَخْرَجَ خمسة دنانير وقال لي : دَفَعَتْ هذه الخمسة دنانير لي امرأة من كرائم ابن مَرْدَنيشْ[1] لِيُدْعَى لها أَن تُحَببَ إليها الصلاة ، فقال أبو العباس: ما خرجت إلا لأخذ مائة دينار ، ولكن بهذه الخمسة وتُؤخذ. فربطها في عامته وانصرف ابن الجذع إلى تلك المرأة ، فأعلمها أنه دفع لأبي العباس خمسة دنانير، قالت له : احمل إلى الفقيه مائة دينار يضعها في موضعها ، فجاء بها ابن الجذع إلى أبي العباس ، فقال إنما طَلَبْتُ هذه المائة لصبيةٍ بِكْرٍ قَبَضَتْ لها جدتها نَقْدَهاَ من زوجها فاَكَلَتْهُ لِحاَجَتِها فَطُولِبَتْ بِالنقْدِ لتَجْهيزها لَهُ فَشَكَتْ إلي، وَعَلِمْتُ صِدْقَها فخرجت أستسقي ليَفتحَ اللهُ لها في مائة دينار، فَدَفَعَ إلى العجوز المائة وقال لها : جَهْزي حفيدتك بالمائة وخذي هذه الخمسة انتفعي بها ، فقال ابن الجذع لأبي العباس : عسى أن تعلمني بأي شيء علمت نزول المطر حين أخبرتنا بذلك، فقال : مرت ريح باردة في خدي فلما وجدت بردها رفعت بصري إلى السماء فرأيت سحابة بطرف جبل دَرن فعلمت أنها سحابة مطر[2].

وهكذ كان لمدرسة أبي العباس الأثر البالغ في توجيه السكان ومساندتهم عند الحاجة والمرض والخوف، وأضحت جزء لا يتجزأ من تاريخ مدينة مراكش، وبالتالي جزء من تاريخ المغرب الحافل بالكثير من الروايات الشفاهية، التي تمجد فلسفة السبتي حول الصدقات، وهذا يدل على التأثير الذي خلفه هذا القطب في نفوس الناس جميعا، ممن عاصروه وعايشوه، أو حتى ممن جاؤوا بعده، باعتباره نموذجا قل نظيره في العطاء والسخاء.

المطلب الثاني: تجسيد التلاحم السياسي الشعبي

الفرع الأول: اتحاد السلطة الموحدية والمدرسة السبتية

إن عدم اقتصار التصوف على ما هو ظاهر في الدين من طقوس وممارسة، وتجاوزه إلى مستويات أخرى تمزج بين الشريعة والحقيقة إشراقا وكشفا، جعل المتصوفة عموما محط أنظار السلطة والفقهاء، كما جعل العلاقة بين الطرفين في تذبذب قائم، وهذا راجع إلى طبيعة الحكم أولا. وإلى تيارات الصوفية وشخصية الصوفي نفسه، لكن المدرسة السبتية جسدت الانسجام الحاصل بين السلطة والشعب في تحقيق المصلحة العامة للدولة، في تحالف أبي العباس السبتي ويعقوب المنصور سنة (580 هـ)، حيث قام هذا الأخير بإنزال الشيخ من المعتكف في جبل جليز إلى حاضرة مراكش[3]، فحبس عليه مدرسة العلم ودار السكنى، لتفتح الأبواب أمامه لنشر مذهبه، فحظي بالمكانة العالية لدى الخليفة، بل سمحت له السلطة الموحدية للقيام على الناس في السوق بسوطه، يذكر الناس ويضربهم على ترك الصلاة في أوقاتها فنتج عن ذلك تأثر الخليفة المنصور بأخلاق المتصوفة؛ "فبلغ به الأمر إلى الكتبة إليهم، وسؤالهم الدعاء، ووصلهم بصلات جزيلة وافرة"[4]. فكانت محاولة من الموحدين لاستقطاب أعلام التيار الصوفي، ومناهضة المرابطين، وكسر شوكتهم والنقص من مدهم، فاتخذت سياسات متنوعة في احتواء الأعلام الصوفية، وتجنبا لاصطدام مع زعمائها، لما لهم من أعمال جليلة سببت في التفاف شرائح المجتمع كأخبار الكرامات وإجابة

1- كان بنو مردنيش يملكون بلاد شرق الأندلس عندما جاز أبو يعقوب بن عبد المومن لتطويعها سنة سبع وستين وخمسمائة ، فمات كبيرهم محمد بن مردنيش وقدم أولاده وإخوته على أبي بعقوب فسلموا إليه جميع بلادهم ، تروج أختهم وأحسن إليهم وأصبحوا عنده في أعز منزلة، الاستقصا للناصري ج2/ص150.

2- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ابن الزيات) ص 467و468

3- المصدر السابق، ص455.

4- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، علي بن أبي زرع دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، ص 222.

الدعوات، وجعلت الصوفي بمثابة الزعيم الروحي للعامة زمن الكوارث، وبهذا "لم يعد التصوف يعني الاعتزال والتقوقع داخل الذات وإنما الاندماج مع المجتمع وخدمته اجتماعيا وتربويا ونفسيا والمساهمة في الأحداث السياسية"[1].

وامتد هذا الأثر السياسي للمدرسة السبتية إلى يومنا هذا، مع تعاقب السلاطين والملوك على المغرب واهتمامهم بالتجربة الصوفية باعتبارها أحد ثوابت المملكة المغربية، وهذا كاف لترجمة حقيقة تجسيد إمارة المؤمنين في أبهى مظاهرها، وكاف ليحظى المغرب بلقب"بلد الأولياء".

الفرع الثاني: تحقيق مبدأ التسامح والتعايش بين الأمم

إن ما يميز المدرسة السبتية هو مبدأ المشاركة والمتاجرة مع الله، فمذهب أبي العباس السبتي القائم على الإحسان والجود، لم يكن خاصا بأبناء ملته فقط، بل كان يرى وجوب تعميم الرحمة على سائر الخلائق بما في ذلك اليهود والنصارى، ويذكر بالخصوص أنه كان رحيما باليهود، "قال ابن جعفر في سلوة الأنفاس عند ترجمته: والدعاء عند قبره مستجاب، وقضاء الحاجات لمن ينذر له شيئا من الصدقات أمر مستفيض حتى عند كثير من اليهود والنصارى"[2]، وقد كانت مراكش يومئذ تضم جالية يهودية مهمة كما هو الشأن بالنسبة لكل الحواضر الإسلامية التي تزدهر فيها روح التسامح والتعايش بين كل الملل، ولا يتعارض فيها التدين الإسلامي الحق مع إفساح المجال لباقي القناعات الدينية. واليهود بدورهم كانوا يقدرونه، وقد رويت وقائع عن توسل اليهود بأبي العباس واستغاثتهم[3] به في المغرب والأندلس، "سمعت يهودياً بمراكش يلجأ ببركته، وينادي باسمه في أمر أصابه، لا مع المسلمين، فسألته عن سببه فأخبر أنه وجد بركته في غير موطن، فسأله عمّ رأى له في وقت، فقال: وحق ما أنزل على موسى ما أذكر لك إلا ما اتفق لي، سرت ليلة مع قافلة في مفازة، فعرجت دابتي فما شككت في قتلي وسلبي، فجلست وبكيت وبيني وبين الناس بعد، وقلت يا سيدي أبا العباس خاطرك، قال لي: فواللّه ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة وقفوا لأمر أصابهم، وجرت دابتي وخفّ عرجها ثم زال، واتصلت بالناس، فقلت له: لم لا تسلم؟ فقال: حتى يريد اللّه تعالى، وعجبت من كون ذلك يهودياً فهي شهادة من عدو في الدين."[4]

وكان حتى في الصدقة لا يميز بين مسلم وغيره، ولا يخص أهل الإسلام فقط بالصدقة والبذل، بل جعل نظريته خطابا موجها للبشرية والإنسانية جمعاء، يقول:" قدم الصدقة لأول من تصادفه دون أن تسأله عن دينه"[5]، فكانت له عبقرية في طرق الإقناع للناس وجلبهم إليه وإلى مذهبه، فقد وصف ابراهيم حركات مذهبه: "بأنه يشبه الاشتراكية الذي يقوم على مبدإ تنازل الإنسان عن ثروته لصالح العامة مع الاحتفاظ بما يكفيه."[6]

وبمثل سياسة المدرسة السبتية ورائدها ظل المغرب لقرون ولازال أرضا خصبة لتعايش الأديان وتلاقح الثقافات على اختلافها وتنوعها.

1- الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة سبعة رجال د حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الأولى 1994م ص 180.

2- السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية لمحمد بن محمد بن عبد الله الموقت المراكشي مراجعة وتعليق أحمد متفكر المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الثالثة 1432هـ- 2011م ص 136.

3- الإعلام للسملالي ج1 ص 227.

4- نيل الابتهاج بتطريز الديباج أحمد بابا التنبكتي السوداني، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة دار الكاتب، طرابلس - ليبيا الطبعة الثانية، 2000 م، ج1 ص76.

5- التشوف ص 456.

6- المغرب عبر التاريخ ابراهيم حركات دار الإرشاد الحديثة الدار البيضاء 1420ه- 2000م ص 311.

المطلب الثالث: إغناء الرصيد الديني والثقافي

الفرع الأول: التفسير الإشاري

إن تميز المدرسة السبتية بمذهب الجود، جعل القدماء يقولون أنه "لا يمكن لأي مخلوق أن يساوي عبادة الحسن البصري، وزهد داوود الطائي، ومعارف أبي مدين، وهمة أبي العباس السبتي"، فأبو العباس السبتي كانت له همة عالية تنفعل لها الأشياء على مقتضى مراده بقدرة الله تعالى، كما كانت له منهجية خاصة، ورؤية منفردة في تفسير الآيات، يشقق منها المعاني ويوظفها في الوعظ والتذكير الذي كان ينحوه، وكان تفسيره للآيات على غير ظاهرها، حيث يفسرها تفسيرا إشاريا يخدم نظرية المدرسة السبتية في الجود، فمثلا في قوله تعالى: "﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلاَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنَ انجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[1]؛ فسر السبتي الفساد في الأرض بالبخل والامتناع عن النفقة، فقال: "أولو بقية أتدرون ما هذا الفساد؟ إنه إهلاك للحرث والنسل بالبخل المؤدي إلى الجذب"[2].

وكان يذهب إلى أن الرحمة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] الرحمة هي المطر الذي يستحقه المنفقون جزاء.

وقال أحد جلسائه : حضرت مجلس أبي العباس السبتى ىوما وقد ذكر قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلاَمَانَةَ عَلَي ٱلسَّمَٰوٰتِ وَالاَرْضِ وَالجِبَالِ فَابَيْنَ أَنْ يَّحْمِلنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنسَٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[4] فقال : هذه الأمانة في الرزق فالسماوات أعطت ما عندها من الماء وهو المطر. والأرض أعطت ما عندها من النبات والثمار وما فيها من الأرزاق وأبت من إمساكها. فصار الإنسان خازنا لما يجتمع عنده فيمنع منه المساكين إنه كان ظلوما جهولا.

وكان يربط أحيانا ربطة ذكية بين بعض الآيات الشيء الذي يجعلها تؤدي معنى الحض على السخاء والإنفاق. من ذلك أنه ذكر يوما قوله تعالى: ﴿اَعْلَمُوَاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[5] فقيل له بماذا يحيي الأرض بعد موتها. فقرأ كجواب على السؤال الآية التي بعدها بقليل: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَالمُصَّدِّقَٰتِ وَاَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[6] فيكون معنى الآية أن حياة الأرض تمت بالفعل الذي يباشره المتصدقون[7].

وكان هذا الميل نحو تأويل النصوص على معنى النفقة يتعدى عنده القرآن إلى السنة النبوية. ومن ذلك أنه فسر الفرقة الناجية من بين الفرق الإثنتين وسبعين على أنها الفرقة التي تتصف بالإنفاق. قال: نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَامُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَٰنِ﴾[8] حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار وأنهم سألوا النبي أن يعلمهم المؤاخاة فأمرهم بالمشاطرة فعلموا أن العدل المأمور به هو المشاطرة. ثم نظرت إلى قول النبي : «وستفترق

1- سورة هود الآية 116.

2- الإعلام للسملالي ص 256.

3- [الأعراف:56]

4- [الأحزاب:72]

5- الحديد:11 ،

6- الحديد الآية: 18.

7- التشوف لابن الزيات، ص471و472.

8- النحل الآية: 90.

أمتي على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي ما أنا عليه وأصحابي[1]»، وأنه قال ذلك صبيحة اليوم الذي أخي فيه بين المهاجرين والأنصار وأن الأنصار، ذكروا أنهم شاطروا المهاجرين، فقال لهم ذلك بإثر ذلك. فعلمت أن الذي عليه هو وأصحابه هو المشاطرة والإيثار. فعقدت مع الله تعالى ألا يأتيني شيء إلا وأنا أشاطر إخواني المؤمنين من الفقراء".

وهكذا كان لمدرسته مذهبا خاصا في التفسير بالإشارة، يدل على عمقه الصوفي، وتجربته الذوقية في الوقوف على مناسبات الآي، كيف لا وقد شهد بعلو كعبه في هذا العلم الشيخ محي الدين بن عربي فذكر أن أبا العباس السبتي كان من الرجال القلائل الذين يعلمون المناسبة في ترتيب آيات القرآن الكريم وليس فقط سوره، فقال في أثناء حديثه عن علم الذوق؛ "فبعض أهل الذوق يعرفون مناسبة آي القرآن وسبب مجيئها في نسق واحد وعلاقة بعضها ببعض ويعرفون الجامع بين الآيتين وإن كان بينهما بُعد ظاهر إذ لا بدّ من وجهٍ جامعٍ مناسبٍ بين الآيتين هو الذي أعطى أن تكون هذه الآية مناسبةٌ لما جاورها من الآيات لأنه نظمٌ إلهيّ. وقد كان الشيخ أبو العباس السبتي صاحب الصدقات من أصحاب الموازين يعلم المناسبة الجامعة بين آيات القرآن الكريم[2].

الفرع الثاني: إرساء ثقافة شعبية قائمة على الجود

رسخت المدرسة السبتية جذورا لثقافة ظلت من أهم ما يميز المغاربة فيما بينهم، وهي ثقافة التضامن والتكافل، والإحساس بالضعفاء والمساكين والمعوزين من الطبقات الهشة، هذه الثقافة التي امتدت إلى ما بعد وفاة سيدي بلعباس، بل وإلى يومنا هذا، فزاوية أبو العباس السبتي بمراكش التي كان يدرس بها، ويستقبل فيها المريدين والطلبة، إلى جانب كونها مركزا اجتماعيا للمساعدة والتوجيه، كانت أيضا محطة للذكر وقراءة القرآن وتلاوة الأوراد، باعتبار الذكر ركيزة أساسية من ركائز التصوف عموما والمدرسة السبتية بالأخص، فهو سلاح المريد لمواجهة علل نفسه وأهوائه، وغالبا ما كانوا يرفعون أصواتهم بهذه التلاوة حتى تصل إلى أطراف الحي". أما الأوراد التي كانوا يتلونها فلا تخرج عن أوراد القادرية وأحزاب مشايخها، وحزب أبو العباس الذي لا زال يقرأ إلى اليوم والذي يقول فيه "اللهم أفضلت فعم إفضالك، وأنعمت فتم نوالك، وغفرت الذنوب فتكامل إحسانك، وسترت العيوب فتواصل غفرانك، اللهم لك الحمد على عقل ثقفته ،ولك الحمد على فهم وفقته، ولك الحمد على توفيق هديته، جل جلالك وتعالى، وانهل جودك وتوالى، وجرى رزقك حلالا، سبحانك إكراما وإجلالا ..."[3]، وهذا الحزب مكون من أربعة محاور رئيسة القوة والضعف، الإحسان والإساءة، القرب والبعد، الأمل واليأس[4]، وقد ضمنه هو الآخر مبدأه في الإحسان والصدقة.

كما جعلت هذه المدرسة اسمها مرتبط ب"العباسية" التي تعتبر من الآثار الباقية لهذا المذهب في ثقافة الشعب المغربي، حيث يتكلف الصناع في مجموع المغرب، بتخصيص اليوم الأول من افتتاح المحل بالتكرم على الزبائن مجانا لفتح باب الرزق، على سبيل الاستفتاح والفأل الحسن، وفي مدينة مراكش خصيصا يجعل تجار المدينة القديمة أول مدخولهم صبيحة كل يوم خاص بصندوق وزاوية سيدي بلعباس، لعلمهم أن المستفيدين من ريعها هم العميان المرتبطون بالزاوية والذين يلقبون ب"أُولاد سيدي بلعباس"، فقد نقل الشيخ محمد بوخبزة التطواني نقلا عن

1- رواه أبو داود (4597) والحاكم (443) وصححه ، وحسنه ابن حجر في " تخريج الكشاف " (ص : 63)

2- شمسُ المغربْ سيرة الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي ومذهـــبه، لمحمد علي حاج يوس، تقديم رمضان صبحي ديب، الناشر فصلت للدراسات والترجمة والنشر، 2006م ط1.ص321.

3- النبوغ المغربي، عبد الله كنون، الكتب العلمية بيروت، الطبعة الرابعة سنة 2015م، ج 2، ص399.

4- الآثار الأدبية لصوفية مراكش حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الأولى 1994م ص 237- 246 بتصرف.

الأستاذ محمد بن تاويت التطواني "أن نظرية الجود التي ظهر بها أبو العباس السبتي دفين مراكش، ما زالت سارية المفعول إلى الآن، وقد أدركنا السفانجية أي صانعي السفانج يصنعون كرات يتصدقون بالبعض منها قبل الشروع في العمل، وتسمى هذه الكرات العباسية نسبة إلى أبي العباس السبتي."[1]

كل هذا رفع للمدرسة شعار الحض والحث على السخاء والإنفاق، حتى قال محيي الدين بن عربي: "أعطي السبتي ميزان الجود، وأعطي عبد القادر الجيلاني ميزان الصولة."[2]

فحققت المدرسة أهدافا مهمة في حياة سكان مدينة مراكش، "ويكفي هذه الأخيرة شهرة أنها كانت موطن أبي مدين شعيب، وأبي الحسن علي بن حرزهم، وأبو يعزى يلنور، والسهلي،.."[3].

الفرع الثالث: التربية والتعليم

وهو من أهم الأدوار التي ينهض بها الأقطاب، ويقوم على تعليم المريدين والطلبة وتفقيههم في أمور الدين وتربيتهم روحيا بتلقينهم الطريقة، "وتختلف مناهجهم والعلوم التي كانوا يلقنونها؛ فبعضهم يغلب الجانب الديني من تفسير وحديث، والبعض الآخر يغلب الجانب الصوفي التربوي، أراجيز، صوفية وقصائد، ومنهم من يمزج بين المنهجين"[4]. وقد كانت زاوية سيدي بلعباس مركزا تعليميا تربويا، ينشر العلم إلى جانب المدارس والجامعات، وتعطى فيها ثقافة دينية وشعبية ترشد الناس إلى حسن السيرة والسلوك، وكان الشيخ بنفسه يقوم بمهمة التدريس بعد إنهاء خلوته، في المدرسة التي خصصها له يعقوب المنصور، وكان يدرسهم الحساب، ويحضر مجالسه عدد متزايد من الطلبة ليس فقط لمستوى دروسه، ولكن بسبب ما كان يسبغه عليهم من مظاهر الرعاية والعطف"[5]. وكان تدريسه رضي الله عنه، تأدية لرسالة تربوية علمية، وإحداث تعليم لم يكن الهدف منه الحصول على درجات علمية أو مناصب قضاء أو فتوى، وإنما مجاهدة النفس وتصفية الفؤاد وتربية الروح، لذا كانت حلقاته تجمع الطالب المتعلم إلى جانب الرجل الشعبي، فتخدم بذلك الطبقات الشعبية التي لم تتح لها فرصة التعلم، ومن أسماء الطلبة الذين احتفظت لنا بهم المصادر: "عيسى بن شعيب، وأبو بكر بن مساعد اللمطي الذي لازمه مدة طويلة وروى عنه صاحب التشوف كثيرا من أخبار الشيخ، وأبو يعقوب يوسف بن محمد الحسني الأنصاري المعروف بابن الحكيم وأصله من الأندلس وهو أشهر تلامذته."[6]. لكن الجذير بالذكر أنه بعد وفاة أبي العباس السبتي لم يستطع أحد من أفراد أسرته أو من تلامذته اتباع مذهبه في الصدقة بنفس العزيمة والحماس والإصرار، "فمحاولات كل من أبي الحسن علي اللحائي، وشيخه محمد بن موسى الحلفاوي الإشبيلي لم تصل إلى مستوى همة أبي العباس، فاقتصرت طريقتهما على توزيع الصدقات على المحتاجين دون أن تنص على فكرة المتاجرة التي هي أساس مذهب أبي العباس السبتي، وجعلته يلقب بين الناس "تاجر الله بين خلقه، فلم يكن له منافس ليس فقط في منطقته، ولكن بين كل أولياء المدينة، فهو حاميها الأول، ووليها المفضل من طرف الكل"[7]. مما جعله يحظى باهتمام الكتاب والشعراء، فألف ابن الزيات

1- مجلة المناهل تصدرها وزارة الشؤون الثقافية الرباط ربيع الأول 1402ه - يناير 1982م العدد الثاني والعشرون السنة التاسعة ص 128 بتصرف.

2- التشوف لابن الزيات،465.

3- المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، أحمد التادلي الصومعي تحقيق على الجاوى مطبعة المعارف الجديدة القاهرة الطبعة الأولى 1996م ص 33.

4- الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة سبعة رجال د حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الأولى 1994م ص 185.

5- التشوف ص455.

6- التشوف ص 417.

7- مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الأولى 1994م ص 177.

كتاب "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار الشيخ أبي العباس السبتي"، وهو معاصر للسبتي وأحد رفاقه، روى بعض أخباره عنه وعن أصحابه، فكان المنبع الأساسي لاستقاء أخبار الشيخ. كما ألف محمد بن محمد المؤقت المراكشي كتابا سماه" تعطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس" بإشارة من شيخه فتح الله بناني، بعدما جمع أخبار مشاهير الحضرة المراكشية في كتابه السعادة الأدبية، فاقترح عليه أن يفرد عميدهم أبا العباس بترجمة خاصة مستقلة.[1]

وقد ركز الشعراء على ما عرف به السبتي عند العامة، تاج البلدة، وسلطان الحضرة، وسلطان مراكش، فألفوا ما يسمى بالعباسيات وهي قصائد تمدح الشيخ وتذكر مذهبه، فقال بعضهم:

وسلطان لحضرتها عماد أبو العباس قطب العارفينا

فعدم مسايرة أحد لأبو العباس السبتي في كرمه وعطائه ومبالغته في الإنفاق على المحتاجين والفقراء، أعطته شعبية كبيرة واحتراما وتقديرا من طرف كل الطبقات الشعبية، ونسبوا قصائدهم إلى كنيته، ومن العباسيات المشهورة عباسية أحمد امريفق التي يقول فيها:

ليغاثا لله غث من بك استرحم ولا تواخذوا سيدي بلعباس
مثلك حق الجار ما نسى من بحر نداك تلق قوتي ولباسي

ومدحه وحث على زيارته، المؤرخ محمد الصغير الإفراني في قصيدة مطلعها:

إن ترد نيل الأمان في سرور مع تهان
أو تكن في ضيق حال من ملمات الزمان
زر أبا العباس تظفر دون شك بالأمان[2]

وتسجل المصادر مداومة كثير من علماء المدينة والوافدين عليها زيارة مقر المدرسة السبتية بمراكش، يقول أحمد باب التنبكتي في كتابه نيل الابتهاج: "وقبره معروف مزار مزاحم عليه مجرب الإجابة، زرته مراراً لا تحصى وجربت بركته غير مرّة."[3] "وإلى الآن ما زال الحال على ما كان عليه بها روضته من ازدحام الخلق عليها، وقضاء حوائجهم ولكن قل ذلك العطاء لفساد الزمان."[4]

إن من الآثار التي يمكن تسجيلها هو استمرارية مد التكافل للمدرسة السبتية إلى الآن، واقتفاء الدولة المغربية منهج أبي العباس في تدبير الأزمات، من حيث تدبير المال العام، وصرفه بالطرق الصحيحة للمحتاجين، وخصصت الدولة لذلك مؤسسات تعنى بالتضامن وتحقيق التآزر والمواساة، وكانت جائحة كرونا مثالا واقعا جسد تلاحم الدولة والناس عامة مع الضعفاء والمتضررين من هذه الأزمة.

خاتمة

وهكذا ظلت المدرسة السبتية مدرسة قائمة على أساس الالتزام بالشريعة وربطها بالحقيقة، وتميزت بالبذل والعطاء، وخلفت إرثا حضاريا تعدت حدوده مدينة مراكش، ليصبح ذا بعد حضاري إنساني، جعل أبو العباس السبتي

1- الحركة الصوفية بمراكش حسن جلاب ص 172- 173 بتصرف.
2- مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الأولى 1994م ص 45- 46.
3- نيل الابتهاج ج1 ص 69.
4- نيل الابتهاج ج1 ص 75.

من أحد أهم رجالات مراكش السبعة، وأشدهم ارتباطا بالمجتمع، ومما يمكن استخلاصه من خلال من هذه الجولة العلمية في هذه المدرسة الصوفية ما يلي:

- المدارس الصوفية بأعماقها الدعوية تمثل روح الحياة وحياة الروح، وما تتلقاه من سهام الاتهام إنما هو محاولة لعرقلة السير إلى الله
- توسيع المدرسة السبتية لمفهوم التصوف وعمله، ليشمل كل مجالات الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية وغيرها.
- الجود ينفعل بالوجود عنوان بارز لأساس وسمة وأثر ظل لصيقا بالمدرسة السبتية.
- المدرسة السبتية نموذج من المدارس الصوفية التي تؤكد أن التصوف ليس نزعة رهبانية، وإنما مشاركة الناس في حياتهم وحمل هم المجتمع معهم.
- تضامن أبي العباس السبتي مع اليهود لا يفهم منه الدعوة إلى مناصرتهم، وإنما استجابة لنداء الله في التعايش معهم، وتحقيقا لمقاصد الشريعة في حفظ الدين وإظهار سماحته.
- ارتباط المدرسة السبتية بالدولة، جعل المدرسة رائدة في كل الميادين، مؤدية للعمل المنوط بها، كما جعل الدولة تتبنى سياسة المدرسة في الإنفاق والعطاء إلى اليوم.
- نحن في حاجة إلى الاستمداد من سياسة المدرسة السبتية سواء في علاقتها مع الذميين، أو مع المسلمين، وحل الأزمات والنكبات التي تجتاح العالم بتطبيق نظريته في الإنفاق والبذل، وهذا ما نراه جليا في سلوك أمير المؤمنين من إرسال مساعدات لإخواننا بفلسطين في محنتهم الأخيرة، وأيضا اتضح في أزمة كرونا التي جسدت تلاحم الشعب المغربي فيما بينه، وتعلقه بأهذاب العرش العلوي المجيد، وكذا العطاء العلمي والمعرفي الذي تزخر به كليتنا والمتمثل في أساتذتنا الأوفياء ما هو إلا امتداد للتربية العباسية الجوادة والمعطاءة..

لائحة المصادر المراجع

- القران الكريم برواية ورش.
- الآثار الأدبية لصوفية مراكش حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الأولى 1994م
- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن خالد الناصري الدرعي، تحيق: جعفر الناصري و محمد الناصري، الناشر: دار الكتب - الدار البيضاء،
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن ابراهيم السملالي، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المكتبة الملكية الرباط الطبعة الثانية 1993م.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، علي بن أبي زرع، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى عبد الواحد المراكشي، قسم الموحدين، تحقيق: مجموعة أساتذة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى:1406ه، والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي تحقيق: إحسان عباس،
- تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول في أمور أعمها التصوف وما فيه من وجوه التعرف المسمى اختصارا" قواعد التصوف وشواهد التعرف" لأبي العباس أحمد بن أحمد عيسى زروق الفاسي ، اعتنى به نزار حمادي، المركز العربي، الشارقة.
- تعطير النفاس بالتعريف بالشيخ أبي العباس، محمد بن عبد الله المعروف بابن المؤقت نشر وتقديم وتعليق أحمد متفكر، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش المغرب 2003.
- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ابن الزيات)، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1997م.
- الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة سبعة رجال د حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الأولى 1994م.
- الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع هجري، جمال علام البختي مكتبة الثقافة الدينية القاهرة الطبعة الأولى 1426ه- 2005م.
- الرسالة القشيرية، لأبي القاسم عبد الكريم القشيري، تحقيق واعداد معروق مصطفى زريق. الناشر: المكتبة العصرية بيروت لبنان ،2001م
- السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية لمحمد بن محمد بن عبد الله الموقت المراكشي مراجعة وتعليق أحمد متفكر المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الثالثة 1432ه- 2011م.
- الشفا في سيرة المصطفى للقاضي عياض، المحقق: عبده علي كوشك، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 2016م
- شمسُ المغربْ سيرة الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي ومذهبه، لمحمد علي حاج يوس، تقديم رمضان صبحي ديب، الناشر فصلت للدراسات والترجمة والنشر، 2006م ط1.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز - محمد فؤاد عبد الباقي - محب الدين الخطيب، الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة، 2015م

- الفتوحات المكية لمحي الدين ابن عربي، المحقق: د. عثمان يحيى الناشر دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة سنة: م2010م
- الفتوحات المكية، محي الدين بن عربي، طبع وتصحيح أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية لبنان بيروت
- مجلة المناهل تصدرها وزارة الشؤون الثقافية الرباط ربيع الأول 1402ه - يناير 1982م العدد الثاني والعشرون السنة التاسعة.
- مقدمة ابن خلدون، مراجعة: د. سهيل زكار الناشر: دار الفكر، بيروت الطبعة: الأولى، 1401 ه - 1981م
- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي،دار الغرب الإسلامي بيروت، ط.1، 1996
- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، لعبد السلام غرميني، دار الرشاد الحديثة.
- مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي حسن جلاب المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة الأولى 1994م .
- المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، أحمد التادلي الصومعي تحقيق على الجاوى مطبعة المعارف الجديدة القاهرة الطبعة الأولى 1996م
- المغرب عبر التاريخ ابراهيم حركات دار الإرشاد الحديثة الدار البيضاء 1420ه- 2000م
- النبوغ المغربي، عبد الله كنون، الكتب العلمية بيروت، الطبعة الرابعة سنة 2015م،
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيريها لسان الدين بن الخطيب، لأحمد المقري التلمساني، تحقيق: د. مريم قاسم طويل، و د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، 2011م،
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج أحمد بابا التنبكتي السوداني، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة دار الكاتب، طرابلس - ليبيا الطبعة الثانية، 2000 م،